فشل الحل العربي للمسألة الفلسطينية، بشقيه العسكري والدبلوماسي، الى طبيعة الوضع العربي عموماً، والذي لا نجانب الصواب ان قلنا ان القضية الفلسطينية لم تكن قضيته المركزية، ولا القضية الاولى في جدول اهتماماته، حتى بالنسبة الى القوميين العرب. فقد كانت الوحدة العربية هي القضية المركزية بالنسبة الى دعاة القومية، وبضياع حظ انجاز مثل هذه الوحدة حلت الهموم القطرية محلها (التنمية)؛ حيث يأتي «التحرير» محصلة في الحالتين، حسب منطوق تلك الجهات القومية (الوحدة، مرحلة شعار الحرب، التوازن الاستراتيجي، مرحلة السلام).

اما بالنسبة الى اسرائيل، فقد تمكنت، منذ العام ١٩٤٨، من جعل القضية الفلسطينية قضية العرب (مشكلة اللاجئين)، ولم يكن لديها ما يسمى «مشكلة فلسطينية». لكن الاحتلال الاسرائيلي لما تبقى من فلسطين في العام ١٩٦٧، وعدم فراغ تلك المناطق من سكانها، وما استتبع ذلك من تصارع لاحقاً، خلق لاسرائيل «مشكلة فلسطينية»، اعتبرت اسرائيل في الفترات الاولى ان مسؤولية نشوئها تعود الى م.ت.ف. والاقطار العربية التي تدعمها، فحاولت حلها بالحرب على م.ت.ف. حيناً، وبدفع العرب الى شن الحرب على م.ت.ف. حيناً آخر؛ وكان ذروة هذا الصراع ابعاد م.ت.ف. عن دول الطوق المحيطة باسرائيل، تباعاً منذ العام ١٩٧٠، وبلغت ذروتها في العامين ١٩٨٢ و ١٩٨٣ بأيد اسرائيلية، وعربية، على التوالي. وقد علق بعض الاسرائيليين على غزو اسرائيل للبنان في العام ١٩٨٢ بالقول انه لحل مشكلة اسرائيل في الضفة الغربية. لكن تلك المشكلة لم تحل، وبدأت تتفاقم الى درجة صار يمكن القول معها، كما اسلفنا في بداية المقالة، بوجود «مشكلة فلسطينية» في اسرائيل. لكن هذه المشكلة لم تصل، بعد، درجة ما يسمى في الصراع السياسي «المأزق»، بمعنى ان تصبح «مشكلة اسرائيلية»، حيث ما زالت «مشكلة فلسطينية» يجتهد حول حلها اسرائيليون.

كيف يمكن ان تصبح القضية الفلسطينية «مشكلة اسرائيلية» ؟

لكل احتلال كلفته. وسلطات الاحتلال لا تأبه بالمحتلة اراضيه، طالما ان كلفة الاحتلال أقل من مردوده؛ ولكلفة الاحتلال نظام احتساب، ولمردوده نظام احتساب آخر. ويبدو ان استثمار اسرائيل للمناطق المحتلة قد اقترب من نهاياته. والنهايات، حسب هذا المنطق، تعني بلوغ الاستثمار الاحتلالي مرحلة ما قبل استفزاز الذين يقع عليهم الاحتلال، بمعنى ما قبل وضعهم في مواجهة الحالة التي لم يعد لديهم فيها ما يخسرونه سوى حياتهم.

والمستجدات الاخيرة في المناطق المحتلة تفيد بأن وضع السكان في تلك المناطق قد بدأ يصل هذه المرحلة، مما دفع اسرائيل الى القبول، ضمناً، بخطة التنمية الاردنية لتلك المناطق، والقبول بتقديم مساعدات مباشرة من دول اوروبا الغربية والولايات المتحدة الاميركية، وذلك تحت شعار «تحسين الاحوال المعيشية للسكان» الذي رفعته اسرائيل. والغاية من كل ذلك هي العمل على ان يكون لدى الفلسطيني ما يخسره غير حياته، علّه يستكين للأمر الواقع، او يقبل بالخيارات التي تعرضها عليه سلطات الاحتلال. كما ان تنفيذ خطط اسرائيل لاستيطان تلك المناطق لم يعد يستجيب للمخططات الموضوعة في هذا الشأن؛ فبريقه الايديولوجي، الذي صار يمثله كهانا وغوش ايمونيم، بدأ يثير حفيظة الاسرائيليين انفسهم، كما صار مجالاً للنصابين بكل اشكالهم، السياسيين والتجار؛ اما المناطق المحتلة تلك، كسوق للانتاج الاسرائيلي، فقد اتخمت؛ كما انها، على صعيد العمالة الرخيصة، صارت تشكل عبئاً على اسرائيل. يقابل ذلك تطور مستوى الوعي الوطني الفلسطيني، حيث يدلل على ذلك فشل جميع المحاولات، الاسرائيلية والاردنية، في خلق قيادة فلسطينية موالية لأي منهما، او كليهما؛ ووجود شخصيات فلسطينية موالية للاردن، او مهادنة لاسرائيل، لا يلغي هذه الحقيقة (يفيد